العدد (2137) السنة الثامنة - الاحد (22) أيار 2011 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الأمريكان في بيتي .. رواية التجديد

فؤاد نوري البزاز

قرأت رواية الأمريكان في بيتي للأديب نزار عبد الستار في ليلة واحدة، ولساعات متواصلة وهذا لم يحصل لي مع أي عمل سردي مماثل من قبل. إن الانطباع الأول الذي يتولد عند أي قارئ لهذه الرواية الصادرة مؤخرا عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت انه أمام عمل فيه إغراء وحرفية عالية وفيه مقومات الجذب فضلا عن الجماليات الغزيرة التي يتمتع بها أسلوب نزار عبد الستار ولغته العاطفية.

مناسك : لن تخسر حلماً مادمت حية، وسأدافع عن أحلامك بحياتي.

الأمريكان في بيتي رواية تختلف عن كل ما كتب في السنوات الأخيرة عن التجربة العراقية بعد عام ٢٠٠٣. والواضح ان نزار عبد الستار كان صبورا إلى درجة انه انتظر طويلا ريثما تنضج الصورة وتتضح. علما ان آخر إصدار له كان كتاب رائحة السينما وهو مجموعة قصصية صدرت طبعتها الأولى ببغداد عام ٢٠٠٢. أي ان نزار عبد الستار انتظر تسع سنوات حتى خرج لنا بالأمريكان في بيتي، وهي فترة زمنية طويلة جدا ولكنها حفلت بمنجز ثمين.

تحكي الرواية قصة صحفي يدعى جلال يعمل مع منظمة سرية عريقة اسمها الدومنيكوس ويحاول في الوقت نفسه المحافظة على قلادة تاريخية تعود الى الملكة شمشو زوجة آشور بانيبال مودعة عنده وتسعى جهات مجهولة بدعم من ضابط أمريكي كبير للحصول على هذه القلادة على فرضية انها تعود للنبي الإسرائيلي ناحوم. وتتوالى الأحداث في سرد بوليسي مشوق ،إذ نجد جلال يقوم بتفويض من رئيس الدومينكوس بالمحافظة على معالم ثقافية في مدينة الموصل مهددة بالاندثار مثل قصر بني التاريخي الذي يعمل جلال على تحويله الى بيت للموسيقى والفنون، وكذلك يعمل على استعادة مخطوطات كان الجيش الأمريكي قد استولى عليها بحجة صيانتها. كما يقوم جلال بالمحافظة على مكتبات شارع الدواسة وسينما الأندلس إلا ان أعماله تواجه بالعنف من قبل جهات مجهولة ما يصعد المواجهة بين الطرفين. ووسط هذا النسيج تبرز شخصية نسائية مثيرة هي مناسك الصحفية التي تنذر نفسها لأحلام جلال وتطلعاته الداعية الى الإصلاح وترتبط معه بقصة حب. وفي التفاتة رومانسية من جلال يقوم بإيداع القلادة عند مناسك التي ترتديها مستشعرة قوتها الإيحائية. وتنتهي الرواية بالظهور العلني لأعضاء المنظمة في ما يشبه الثورة حيث يتحرك الجميع للمحافظة على المكتبات وسينما الأندلس وقصر بني.

لقد نجح نزار عبد الستار في نسج أحداث روايته وتركيب صورها من خلال ربط الرمز التاريخي بالحاضر. كما نجح بشكل باهر في التعبير عن القضية العراقية باعتبارها صراعاً من أجل استعادة المسار الحضاري ومقارعة التخلف الذي تنشره قوى الإرهاب والظلام. لقد رسمت الرواية صوراً مشرقة للإرادة والتطلع نحو المستقبل، وهذه الثيمة للأسف نفتقر إليها في الرواية العراقية.

ان ما يثير الانتباه في هذه الرواية انها تخلو من كره الذات والانزواء في التغريب كما لا نلحظ الانهزامية والتشتت وانما يبرز فيها الإصرار والحب والإيمان بالنفس. وما يحسب لنزار عبد الستار في هذا العمل هو تكامل الصنعة فالرواية زاخرة بصور جميلة، فضلاً عن الحوار الذي وظف بطريقة غاية في الكمال وبإيقاعية شعرية ويكاد القارئ لا يعثر على شيء فائض في هذا العمل.

إن أهمية هذه الرواية من وجهة نظري تكمن في أنها أول عمل يكتب من الداخل عن الوضع العراقي في أعقاب ٢٠٠٣ وهي وان جاءت بإطار تشويقي وبوليسي إلاّ أنها تطرح ثيمات كبيرة لم يسبق طرحها فكل ما كتب عن مرحلة التغيير العراقية جرى أدلجته واجزم إن أيا من الكتاب العراقيين الذين كتبوا عن التواجد الأمريكي في العراق وحالة الدمار التي اجتاحت البلاد لم تتوفر له فرصة رؤية جندي أمريكي يسير في الشارع. أغلب تلك الروايات كتبت من الخيال ولا تستند إلى الواقع، بل هي منقطعة تماما عنه لذلك لم تلق الاستحسان والاهتمام.

إن رواية الأمريكان في بيتي تمتلك قوة متفائلة كبيرة وهي تحفز نحو الارتقاء بالإنسان وتبشر برواية التجديد، فالأدب العراقي لم يعرف نمطاً كتابياً كهذا، فضلاً عن التماسك الفني وجماليات الأسلوب وخلو الرواية من التعقيدات التي تعانيها الرواية العراقية.

مهرجان ميووش العالمي الثاني وتنوع المرجعية الثقافية

هاتف جنابي

وارشو

عن المهرجان

يمكن اعتبار هذه الدورة الثانية من مهرجان ميووش تظاهرة ثقافية ذات بعد عالمي بحق. جمعت ما يقرب من مئتي شاعر، كاتبا، مترجما، ناقدا وأكاديميا متخصصاً بأدب ميووش. علاوة على جمع من الناشرين وجموع غفيرة من الناس المتعطشين -من مختلف الأعمار- للاستماع لمبدعيهم وربما محاورتهم دون وسيط.

سبق وأن أقرّ البرلمان البولندي بأن تكون سنة ٢٠١١ مناسبة للاحتفال بمرور مئة عام على ولادة الشاعر تشيسواف ميووش (الحائز على نوبل في الأدب ١٩٨٠). لقد نظمت الدورة الأولى من المهرجان سنة ٢٠٠٩ وأعلن عن تنظيم دورته الثانية في الفترة ما بين ٩-١٥ أيار/مايو ٢٠١١ على أن تخصص السنة بكاملها للاحتفال بالشاعر بمباركة جميع السلطات في البلاد وتحت رعاية وزارة الثقافة البولندية. شملت فقرات المهرجان قائمة من النشاطات من بينها عرض أفلام وثائقية عن الشاعر وحوارات فنية-فكرية معه وعنه، وندوات حول مؤلفات ميووش وكيفية قراءتها، وقراءات متنوعة لأشعاره بمصاحبة الموسيقى، ومؤتمر علمي عالمي عقد في جامعة ياغيلونسكي العريقة بعنوان: ميووش وميووش، مخصصة لدراسة إبداع الشاعر وفكره، في الداخل والخارج. كما عقدت ندوة عنه باعتباره مترجما كبيرا، ومترجَمًا عبر الآخرين إلى لغات كثيرة.

جرت أعمال المهرجان في مدينتين بولنديتين جنوبيتين عريقتين في تاريخهما ونشاطهما، خصوصا الثقافي والأكاديمي، وهما كراكوف وفروتسواف. كل شيء تم إعداده مبكرا بنصف سنة على أقل تقدير، بفضل لجنة عليا ولجان فرعية قامت باختيار أسماء الضيوف ومتابعتهم وحجز الفنادق والقاعات وترتيب العقود مع المدعوين(بغرض دفع مكافآتهم) والتهيؤ لنصب الخيمات في بعض الساحات، وطبع برنامج المهرجان والبوسترات التي عمت بولندا وتهيئة المترجمين والنقاد والصحفيين ووسائل الإعلام. في ظل مهرجان بهذا الحجم جرت بعض المفاجآت في اللحظات الأخيرة متمثلة بعدم تمكن بعض الضيوف من الحضور لأسباب خاصة.

كان المفروض أن يحضر من العرب كل من أدونيس والروائي أمين معلوف وهاتف جنابي، لكن معلوفا لم يحضر.

تنوع المرجعية الثقافية

أدونيس وبَيْ داوْ وصداقة الكلمة

حاول منظمو المهرجان أن يجعلوه ذا روحية ونكهة ومدلولات متساوقة ومتماهية مع حياة وشعر وفكر الراحل ميووش(ولد في ٣٠ حزيران ١٩١١ وتوفي في ١٤ آب ٢٠٠٤) المولود في بلاد غير بلاده هي ليتوانيا، وحينما أراد العيش في وطنه الأصلي اندلعت الحرب العالمية الثانية، وبعد أن وضعت أوزارها التحقت بولندا بالمنظومة الاشتراكية آنذاك. حينئذ لم يجد ميووش ملاذا له إلا بالرحيل إلى الغرب والعيش هناك كمنفي اعتبارا من عام ١٩٥١ (حيث طلب اللجوء السياسي في فرنسا)، وفي عام ١٩٦٠ انتقل من فرنسا إلى الولايات المتحدة الأميركية. لكنه عاد إلى وطنه بولندا سنة ١٩٩٣ حيث أقام في مدينة كراكوف العريقة، فتمّ تكريمه ورفع الحيف عنه. عانى ميووش في منفاه أول الأمر كثيرا. لكن حياة المنفى وهبته تجربة ثرية وشهرة بحجمها توجتْ بمنحه جائزة نوبل في الأدب(١٩٨٠).

كل مفردات المهرجان جاءت في سياق أجواء إبداع وحياة ميووش وفي حدود المواضيع التي ساهم في الكتابة عنها شاعرا، ناقدا، مترجما، ومحاضرا، كالمنفى، والعلاقة بالآخر، ونقد التعسف والنظم الشمولية ومثقفيها، والدعوة لحرية الفكر والمعتقد والحقوق المدنية. من هذا المنطلق وعلى العموم يمكن اعتبار نتاج ميووش إنسانيا، ونحن قريبون منه بهذا القدر والمعنى.

لذلك لم يكن غريبا أن يدعى شعراء وكتاب ومترجمون مرموقون ومعروفون عالميا، عاشوا تجربة الرفض والتمرد والمنفى والتساؤل والبحث عن الهوية، كالشاعر أدونيس(مواليد ١٩٣٠) المعروف في بولندا أيضا، والشاعر الصيني بَيْ داوْ- Bei Dao (ولد في بيجين سنة ١٩٤٩) والشاعر الكاريبي ديريك ولكوت – Derek Walcott(مواليد ١٩٣٠)، والشاعر الأوكراني المتميز أولَهْ ليشهَا- Oleh Lysheha(مواليد ١٩٤٩) الذي كان ممنوعا في بلاده في الفترة ما بين ١٩٧٢-١٩٨٩، والشاعر العراقي هاتف جنابي. إضافة إلى أسماء أخرى من دول مختلفة، ونخبة من الشعراء البولنديين في مقدمتهم الشاعرة فيسوافا شيمبورسكا، Wislawa Szymborska -، ويوليا هارتفيغ- Julia Hartwig، وآدم زاغاييفسكي- Adam Zagajewski، وريشارد كرينيتسكي- Ryszard Krynicki.

لم يتمكن ديريك ولكوت من الحضور بسبب مرضه المفاجئ ونقله إلى أحد مستشفيات لندن وهو في طريقه إلى المهرجان. كان هاجس وتجربة المنفى والرفض والتوق نحو الحرية والتعلق بالمنحى الإبداعي الحداثوي وعدم الركون إلى المسلمات وهمّ البحث عن الهوية، أهم المشتركات ما بين الشعراء المذكورين على اختلاف مشاربهم ورؤاهم وتجاربهم الشعرية.

غير أن ما يجمع الشاعرين أدونيس وبي داو، على سبيل المثال، ليس الغربة وطرح الأسئلة فحسب، إنما أيضا هو نشرهما باسمين مستعارين، وكونهما من بين المرشحين لنيل جائزة نوبل منذ سنوات، إضافة إلى قرفهما من الحياة خارج جغرافيا الوطن، وبحثهما عما هو جديد. استطاع الشاعر والقاص والأستاذ الجامعي الصيني أن يحل المشكلة بعودته إلى هونغ كونغ بعد أربعة عشر عاما قضاها في منفاه الاضطراري في الولايات المتحدة الأميركية. يعتبر بي داو اليوم من بين أهم الشعراء الصينيين المعاصرين. لنا في المستقبل عودة خاصة به.

وصلنا- أدونيس وأنا- إلى مدينة فروتسواف البولندية الجنوبية الجميلة في عصر يوم الثلاثاء العاشر من أيار: هو من باريس وأنا من وارسو. سبق وأن التقينا مرتين في وارسو في التسعينيات، كانت إحداها بمناسبة صدور مختارات شعرية له بعنوان"فارس الكلمات الغريبة"(وارسو ١٩٩٤)، والثانية حضر للمشاركة في مهرجان دار العالم الأدبي التي نشرت في ما بعد مختارات شعرية لي "بابل تبحث عن بابل"(١٩٩٨).

دعي أدونيس من قبل منظمي مهرجان ميووش في دورته الثانية(يرأسها الناقد والناشر يرزي إيلغ- Jerzy Illg)، واختارني لكي أترجم قسما من قصائده إلى اللغة البولندية وأن أقوم بمحاورته وإدارة لقاءاته الثلاثة وترجمتها كذلك. لقد كان الاحتفاء بنا واضحا ولائقا. قضينا أربعة أيام متلازمين متحاورين مع بعض من جهة، ومع زميلاتنا وزملائنا ومع الجمهور ووسائل الإعلام البولندية من جهة أخرى. كان معنا طوال الوقت تقريبا الشاعر الصيني بي داو – المحب للبلدان العربية والذي يتوق لزيارتها. امتزجت تجارب المدعوين وتلاقحت، لكنها احتفظت بخصوصيتها وأصولها.

كانت الأمسية الأولى في فروتسواف(يوم الثلاثاء ١١ أيار/مايو) مخصصة لموضوع المنفى وقراءة الشعر. حاورتُ أدونيس حول المنفى والغربة وعن تجربته وعلاقته بالآخر، سعيت لاستحضار ميووش كذلك، وفي ما بعد دخل الجمهور معنا في نقاش فطرحت الأسئلة، وتم التوقف عند تجربة أدونيس الباريسية ومع الآخر. بعد ذلك ألقى أدونيس مجموعة من قصائده بالعربية تبعتها ترجمتي البولندية. كانت الأمسية ساحرة بحق. عقدت الأمسية الثانية في يوم الخميس في كراكوف في كنيسة مهيبة، بعنوان "سفر التجليات"حيث ساهم فيها أربعة شعَراء واختتمها أدونيس بالعربية وأنا بالبولندية. وكانت بحق أمسية مثيرة بحضورها الكثيف – النوعي متجاوزا الألف!

في اليوم التالي – يوم الجمعة ١٤ أيار-عقد لقاؤنا الثالث في خيمة كبيرة نصبتْ في إحدى ساحات المدينة، شرعت بتقديم أدونيس للجمهور، ثم قرأنا بالعربية والبولندية بالتناوب، بعدها فتح النقاش وكان إصغاء الجمهور ومناقشته وتنوعه لافتين للانتباه. عموما، شكلت اللقاءات المختلفة بنخبة من الشعراء البولنديين والأجانب متعة وفائدة لنا. تم تتويجها بلقاء الشاعرة شيمبورسكا التي كان المنظمون قد رتّبوا جلوسنا جنبا إلى جنب في قاعة الأوبرا في كراكوف أثناء الحفلة المركزية التي توزعت على فقرتين: الأولى استغرقت ونصف الساعة، تم خلالها منح جائزة ترجمة الأدب البولندي لهذا العام لمترجمة تشيكية(ميدالية كبيرة وعشرة آلاف يورو). والثانية، شغلتها فرقة موسيقية ليتوانية حيث قدمت عملا موسيقيا-اوبراليا جميلا أساسه أشعار ميووش، خصوصا تلك التي كتبها في أميركا بعنوان: "مدينة بلا اسم".

ما يلفت الانتباه في مهرجان ميووش هو دقة الإعداد والتنظيم وعدم تكديس المدعوين في الأمسيات(أربعة أو خمسة على أكثر تقدير في الأمسية الواحدة)، واحترام رغبة الضيوف، ثم الحضور المكثف لنتاج ميووش وضيوفه في وسائل الإعلام، وتغطية فعاليات المناسبة ببعديها المهرجاني – الآني والسنوي.

لم يحظَ ميووش في حياته بتوافق جميع البولنديين على مواقفه السياسية، إلا أن اعتبار مرور مئة عام على ولادته مناسبة للاحتفال بها على نطاق واسع، ثم الاحتفاء الاستثنائي بنتاجه المتنوع والثر وبشخصه، ومن خلاله القيام بتسليط الضوء على الثقافة البولندية وتقديمها بوجه حضاري باعتبارها محبة للثقافة والفنون وساعية لمحاورة الآخر، ما هو إلا درس بليغ لنا جميعا ودعوة ذات معان ودلالات وإشارات متعددة للاقتداء بها نهجا وروحا، من خلال تعلم كيفية مخاطبة ومحاورة أنفسنا أولا، ومحاورة واحترام الآخر المغاير المختلف عنا ثانيا. وهذان هما شرطان للنجاح ولاحترام الذات والآخر لنا.

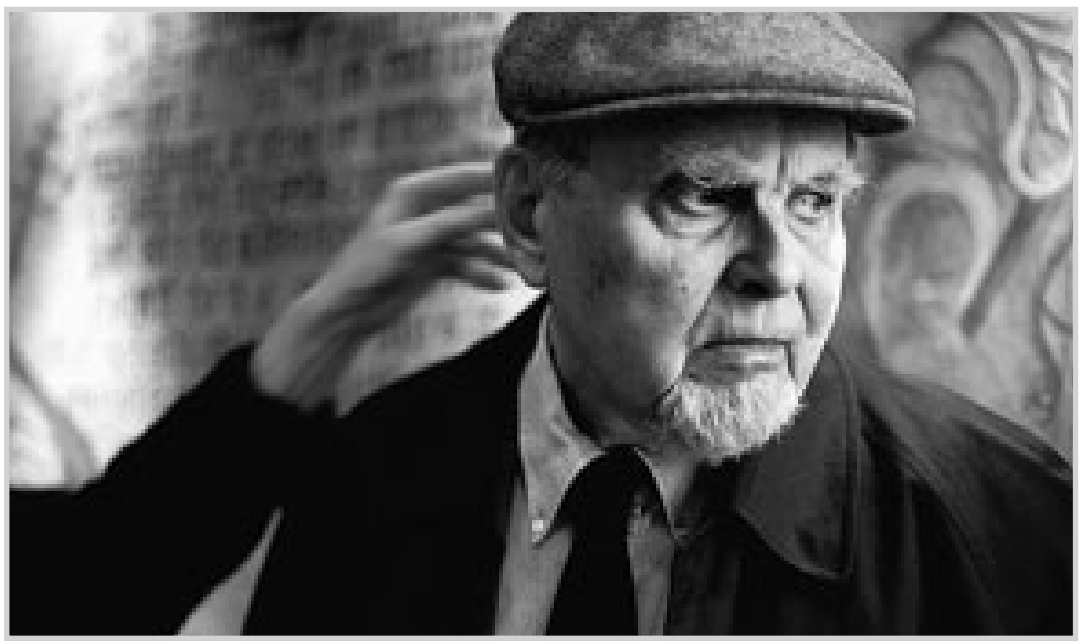

الشاعر تشيسواف ميووش

قناديل

فردوس المكتبة الوطنية الفرنسية ومكتباتنا اليتيمة

■ لطفية الدليمي

باريس الثقافة غير باريس السياحة والهرج العمومي واستعراضات الأثرياء في المطاعم وشارع الشانزليزيه وساحة الفاندوم حيث محال المجوهرات والأزياء الموقعة بأسماء مشاهير المصممين وملهى المولان روج والليدو والفولي برجير، باريس الثقافة شيء مختلف عن سوقية السياحة وابتذالها وتسويقها الجنوني، فهنا المسرحيات التي تعرض أحيانا في المقاهي والشوارع وهنا الموسيقى التي تحيي أحياء المدينة ومقاهيها ليل نهار في أزقة السان جرمان دي بريه او السان ميشيل ومحطات المترو، وهنا المكتبات الشهية التي تحلق بك معروضاتها في عوالم الفكر والفلسفة والفن والادب والرقص والتشكيل والسينما ، مكتبات مكتبات وأكشاك صحف وباعة كتب مستعملة في ميدان السان ميشيل ، حين تمضي قدما تصل إلى منطقة كلوني لا سوربون وشارع المدارس والى يمينه يشمخ مبنى معهد العالم العربي وفعالياته المتنوعة بإدارته البيروقراطية التي تعزز الخلافات العربية والايدلوجية ونزوعات ساسة العرب المهيمنين على سياسة المعهد فتحتفي بالكثير من المبدعين السوريين والمصريين واللبنانيين والخليجيين والمغاربيين ونادرا ما تلفتت الى العراقيين وقد لا تلتفت أبدا ، إنما هناك في شوارع باريس قاعات خاصة يملكها عرب تقيم امسيات ثقافية عربية بدءاً من استضافة الشعراء والموسيقيين الى معارض الفن التشكيلي والخط العربي ومنها القاعة التي يديرها الباحث المصري والشاعر أسامة خليل ،وبجوارها عدد من المكتبات العربية كمكتبة ابن رشد وغيرها ..

أما باريس السياسة فيتسابق رجالها ونساؤها من اجل إعلاء كل شأن ثقافي وسط الصراعات السياسية العنيفة التي تكسب الثقافة في سباقاتها الدائمة، فيضيف كل سياسي الى أمجاد باريس الثقافية والفكرية معلماً جديداً ويكرسها مدينة للفكر والابداع والثقافة .. بعد يومين من تفجير شارع المتنبي ، اصطحبتنا مدرسة اللغة الفرنسية السيدة دارلين وهي اميركية سوداء مثقفة – في زيارة ممتعة إلى المكتبة الوطنية الفرنسية وكنت أتجول في المكتبة – المدينة المصغرة وقلبي يتصدع ألما لما حدث في شارع ثقافتنا المهدورة الدم وأقارن بين تقديس الثقافة عندهم وإهدار دم الثقافة عندنا ..

تمثل المكتبة التي تعد من أعرق وأضخم مكتبات أوروبا – بتصميمها الفريد معلما ثقافيا وعمرانيا حداثيا ، فقد قام بتصميم المباني والحدائق والفضاءات و الأثاث والأبواب والإضاءة الباهرة المهندس الفرنسي (دومينيك بيرو)اثر فوزه في المسابقة العالمية التي اشترك فيها مئتا مهندس معماري من جميع انحاء العالم ، ويمثل كل برج من الأبراج الأربعة هيئة كتاب مفتوح يشكل زاوية قائمة في أحد الأركان المحيطة بالفناء المربع المغلق الذي تتوسطه حدائق مذهلة في مستوى منخفض صممها المهندس نفسه كغابة حقيقية وأحضر أشجارها ونباتاتها من إقليم النورماندي وأوجد لها بيئة مشابهة لغابة فونتبلو تتوسط المباني وتفوح منها اشذاء الفصول على قاعات المكتبة وأروقتها..

تفوق مساحة المكتبة مساحة ميدان الكونكورد اكبر ميادين باريس وتبلغ مساحتها الكلية مع الطوابق سبعة هكتارات ،وتحتل مخازن الكتب احد عشر طابقا من العمارات الأربع ،بينما خصصت سبع طوابق للإدارة، ويدير كل برج ستون موظفا متخصصا بفرع من فروع الثقافة وإدارة المكتبات الحديثة وفي المكتبة فهرس كبير للمخطوطات والكتب والمأثورات العربية والإسلامية،

تتسع المكتبة لعشرين مليون كتاب بمعظم اللغات الحية ومنها اللغة العربية مثلما تضم أثمن المخطوطات من العصور المختلفة ..وقد خصص البرج الأول للجغرافية والتاريخ والبرج الثاني للسياسة والقانون والاقتصاد والثالث للعلوم العامة والتقنية والرابع للفنون والآداب، ويضم قسم الآداب والفنون أربع قاعات كبرى تغطي اللغات والآداب والفنون وتاريخ صنع الكتاب والقراءة والصحافة بجميع اللغات الحية واللغات الكلاسيكية كاليونانية واللاتينية.وأقسام العلوم الإنسانية والفلسفة والتاريخ وهناك قسم للكتب الثمينة النادرة يضم نحو مئتي الف مجلد اختيرت لقيمتها وندرتها من جميع الحقب الحضارية ويرتاد المكتبة يوميا نحو خمسة آلاف الى ستة آلاف زائر بين مطالعين وباحثين ومحاضرين وطلبة ومعنيين بفروع الثقافة المختلفة ،وبإمكان الزائر البحث عن أي كتاب عبر شبكة الكترونية تيسر له الكتاب المنشود بسرعة فائقة..

ولان الثقافة – كل ثقافة لا تزدهر وتتجدد إلا في بيئة حية وفي إطار جمالي وحضاري ، فان قاعات المكتبة الوطنية الفرنسية تتزين بقطع فنية معاصرة لأعظم فناني فرنسا والعالم من لوحات وتماثيل ومنحوتات من الفن الحديث ،ولأجل خلود المبنى وديمومته جيء بالخشب المتين المقاوم لكل المؤثرات الطبيعية من البرازيل والغابون وهو من أرقى وأغلى أنواع الخشب في العالم ..

هكذا يفكر الساسة المعنيون بالمستقبل والثقافة والمصير الإنساني ، ولا يتبارون في نهب وتدمير حاضر بلادهم كما يحصل عندنا بسبب غياب الرؤية المستقبلية والتعويل على الحاضر الملتبس وإهمال مصائر الناس وثقافة البلاد ومستقبل أجيالها..

فمتى يكون للعراق قادة يحبونه أكثر مما يحبون الكسب والمناصب لهم و لمن يواليهم ؟ ومتى يكون لنا ساسة يمجدون العلم والثقافة ولا يؤثرون عليهما أرباح لحظتهم العابرة وهم يتصاغرون في صفقات الترضية وتبادل المنافع الشخصية في محاصصة مهينة للإنسانية وكفاءات البشر ؟؟ومتى تنتعش روح بغداد بمبنى ثقافي يخلد الفكر والثقافة والحضارة العراقية ليخبر الأجيال التي جرى تجهيلها ان لهذا البلد مكانا في فضاءات المستقبل ؟؟

في روايته المنسية الصادرة مؤخراً (الغريب الغامض) : مارك توين يغادر مغامرات المراهقين الى تصوير نهاية العالم !

ترجمة: عدوية الهلالي

حين سئل ذات يوم عن اعمال مارك توين ، قال وليم فوكنر بأن جميع الروايات الامريكية في القرن العشرين كانت قد خرجت من " مغامرات هاكلبري فين " وبان مارك توين هو الاب الحقيقي للأدب الامريكي ..

وفي فرنسا ، لم تكن " مغامرات هاكلبري فين " التي صدرت في عام ١٨٨٥ معروفة جيدا، بينما اشتهرت رواية " مغامرات توم سوير " التي صدرت عام ١٨٧٦ وتم اعتبار الروايتين مخصصتين للأطفال لفترة طويلة ..ورغم انهما تخاطبان الاطفال والفتية بالفعل لكن ترجمتهما كانت بالغة الصعوبة لقدرة الكاتب على اللعب باللغة واللهجات –خصوصا –مما يصعب فهمه في فرنسا دون شك ..

بيرنار هوبفنيه الذي راهن من قبل على ترجمة الروايتين السابقتين يعود الآن ليترجم رواية (٤٤ ، الغريب الغامض) وهي آخر رواية كتبها توين واستغرقت السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من حياته ثم توفي ليتركها مكتملة ولكن غير منشورة ..

اما في الولايات المتحدة فقد ترجمت هذه الرواية منذ عام ١٩٦٩ من قبل جامعة كاليفونيا ، وظل النص كاملا فيها ويمكن لكل الطلبة قراءته كما اراد توين بالضبط ....

ويبقى السؤال عن ماهية هذه الرواية ذات العنوان الغامض وان كانت تدور عن شخصيات مراهقة كأغلب روايات توين ..تدور احداث الرواية في انكلترا قبل قرون وفي قصر مهجور تقريبا وتحتله جماعة مؤلفة من صاحب مطبعة واسرته وعماله ..وذات يوم تنقلب احداث حياتهم بوصول مراهق رث الثياب ذي جمال يفوق الوصف ويدعي هذا الصبي ان اسمه هو (٤٤) ..ومع مرور الايام يكتشف اوغست الذي يروي احداث الرواية –وهو فتى في سن السادسة عشرة – ان (٤٤) هذا هو ساحر حين يراقبه في الليل ثم يتعلم بعضا من أسراره وقواه في الخفاء ..

يضع الصبي (٤٤) اصبعه في كل شيء لدرجة تدخله في إضراب العمال ليتعقد كل شيء في حياة العائلة ..وهذه ليست المرة الاولى التي يستخدم فيها توين موضوع القوى الخفية والسحر، اذ استثمرها ببراعة في روايته (بودنز هيد ولسون) الصادرة عام ١٨٩٤ وهو العمل الرائع والمجهول من قبل الكثيرين ..

يعتمد توين في روايته على فكرة (البديل) فلكل شخصية قرين غامض كما انه يلعب بالشخصيات لعبة المرايا أي يضع امام كل شخصية ذاتها الاخرى لتواجهها ..والغريب في هذه الرواية ان توين يبدو وكأنه يفقد السيطرة على ادواته فتصبح مجنونة هي الاخرى كتلك الساعات التي تبدأ بإرجاع الزمن إلى الوراء !!

ويختتم توين روايته بتشاؤم غريب اذ يصور نهاية العالم مستندا إلى فكرة العدمية التي تحرر الفرد من كل سلطة وتنفي وجود الاله ..لذا نرى نهاية العالم بهيئة حفلة راقصة للهياكل العظمية تحت النور الغامض لنهاية العالم ..انه ينفي وجود الكون والاله والحياة الارضية والجنة والجحيم ويصر على ان ذلك ليس محظ حلم بشع واحمق بل حقيقة واقعة ..

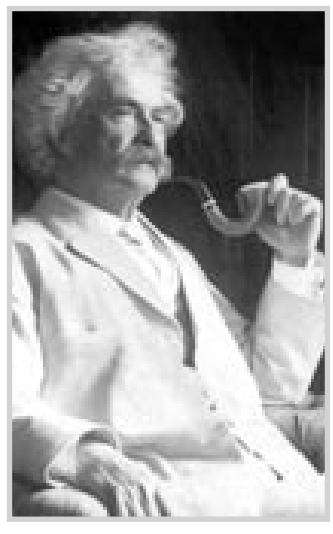

وتعود السوداوية التي كتب بها توين روايته لما مر به من مآس، فبعد ان كان المحرر الصحفي في ميسوري والربان لقارب بخاري في المسيسيبي والمنقب في وايلد ويست سعيدا بمجده الادبي وعائلته الجميلة لأكثر من ربع قرن ، تتلقفه التعاسة بمرض ورحيل زوجته ثم وفاة كبرى بناته فجأة وبعدها انهيار شقيقتها الصغرى نفسيا بشكل خطير واصابة الابن الشاب بنوبات صرع قاسية ...فجاة ، يقفر العالم من حول مارك توين ويتحول بيته النيويوركي الكبير في الجادة الخامسة الى سجن يعيش فيه وحدة قاتلة ..

لأجل كل ماسبق ، يتوقف توين عن نشر أي من نتاجاته ويكرس نفسه لكتابة رواية (٤٤، الغريب الغامض) فضلا عن سيرته الذاتية الكاملة التي صدرت مؤخرا في الولايات المتحدة والتي انهاها عشية وفاة ابنته الشابة التي تختار يوم عيد الميلاد لتودع فيه الحياة عام ١٩٠٩..

بعد موتها ، يلقي توين بريشة الكتابة الى الابد ثم يموت ليلحق بها بعد ستة اشهر ..

في مكتبه ، ترك توين اثرين مهمين اشبه بوصيتين اولهما روايته هذه والاخرى سيرته الذاتية وكلاهما مفعمتان بالجنون والتشاؤم والتساؤلات عن الغاز الكون ..

صدرت رواية (٤٤ ، الغريب الغامض) في فرنسا مؤخرا في ٢٨٠ صفحة عن دار تريسترام للنشر وترجمها عن الانكليزية او بالاحرى –(الامريكية) –بيرنار هوبفنيه ..